



لاشك أن كافة ثورات الربيع العربي قامت لنفس الأسباب الرئيسية من محاربة ال欺辱 والفساد، إلى تحقيق الحرية والعدالة والعيش الكريم.

ولاتختلف الثورة السورية عن أخواتها في هذه النقاط، ولكنها تزيد عليها بواحدة هي أخطرها على الاطلاق. فالمشروع الذي أتى به الأسد الأب ثم ابنه، ولم يأت به القذافي ولأمبارك ولا صالح ولا بن علي، أنهما قاما، بقصد أو بلا قصد، على تغيير الهوية الدينية المذهبية للشعب السوري.

طبعاً يكفي سبب واحد من الأسباب الرئيسية المذكورة أعلاه لدفع أي شعب للقيام بثورة على حكامه، فما بالك لو اجتمعت كلها معاً ومضافاً إليها تغيير الهوية الدينية لبلد محافظ مثل سوريا؟

من الواضح أن هذا المشروع هو (إيراني) بامتياز ويهدف إلى استعادة أمجاد الإمبراطورية الفارسية، ولكن هذه المرة عن طريق الغزو الديني والثقافي والاقتصادي، وهذا مالم تخفه أو تخجل (الخمينية) من الجهار به.

ومن المفيد هنا أن نعلم أن (إيران) وحتى القرن السادس عشر كانت بلداً بأغلبية إسلامية سنية، إلى أن استولى عليها (الصفويون) الشيعة بقيادة (اسماعيل الصفوي) في بداية ذلك القرن وقاموا بتشييعها بحد السيف خلال فترة حكمهم التي استمرت لأكثر من قرنين.

وقد امتد نفوذهم أيضاً إلى الأحواز والعراق غرباً وأفغانستان وباكستان وتركمانستان شرقاً وأذربيجان شمالاً وبعض مناطق الجزيرة العربية عبر الخليج جنوباً.

إلى أن قام ملك أفغانستان السنّي (كلزاي) بغزوهم وتدمير دولتهم في مطلع القرن الثامن عشر، ولكن بعد أن كانت أغلبية

الشعب الإيراني والشعوب التي خضعت لسيطرتهم قد تشييعت.

ويبدو أن حكام (إيران الخمينية) رأوا في نجاح التجربة (الصفوية) في تغيير المذهب الديني لتلك البلاد دافعاً لتكرارها وللنظر هذه المرة باتجاه (سوريا) بشكل خاص، ثم بقية الدول العربية والإقليمية بشكل عام. وكما سبق وشرحت في مقال سابق، فإن المذهب (النصيري) والذي سمي (بالعلوي) فيما بعد، نشأ في (伊拉克) العباسين في القرن التاسع منشقاً عن المذهب (الشيعي).

ولكن مالبث أن قام الشيعة والسنّة معاً بتكفير المذهب الجديد لإيمان أفراده بربوبية البشر، فهرب هؤلاء وأتوا إلى جبال الساحل السوري وعاشوا منطوبين على أنفسهم ومتعاونين مع كل غزو أجنبي عرفته البلاد.

وحيث وصل الإمام الخميني إلى السلطة في إيران عام 1980 كان (الأسد الأب) قد سبقه إلى الاستيلاء على الحكم في سوريا عام 1970.

وقد وجد (الإمام) في (الأسد الأب) ضالته لاكتمال (المحور الشيعي) ليصل به إلى البحر المتوسط، في حين وجد صاحبنا في (الإمام) ضالته كحليف إقليمي وسط محيط من الدول السنّية العربية وغير العربية من حوله.

ولهذا، وبالرغم من العداء الديني والتاريخي الدموي بين المذهبين، إلا أن الرجلين وافقا على ابتلاع كل ذلك والانخراط في تحالف أشبه بزواج المتعة يحقق كل واحد من خالله أهدافه وغاياته الخاصة والعامل المشترك الوحيد الذي جمعهما كان معاداتها التاريخية للسنّة.

لابد من الإشارة هنا إلى أن (الأسد الأب) كان يعرف تماماً أن (إيران الخمينية) هي (حليفة سياسية) وليس (حبيبة) بأي شكل من الأشكال، ولهذا كان يتعاون معها بحذر ويده دائمًا على رقبتها.

وكما أنه كان يعرف أن مهمته بحكم (سوريا) بواسطة أقليته المكرورة التي لا تتجاوز العشرة بالمئة ليس سهلاً، فهو أيضاً كان يدرك أن المد الشيعي الإيراني لو تمكّن من (سوريا) فمصيره هو ومصير طائفته سيكونأسوء بكثير حتى من مصير السنّة.

وقد كان الإيرانيون يطمعون بمكاسب أكثر بكثير، ولكنهم قبلوا بتلك التي منحها لهم مقابل التحالف معه، فأقاموا ماسحة لهم من الحسينيات والشركات والمرافق، ودعوا السوريين إلى التشيع بالدروس الدينية حيناً وبالإغراءات المادية والوظيفية حيناً آخر.

كانوا على استعداد للانتظار ويعرفون أن الرجل لن يعيش إلى الأبد، وأنه حين يرحل، سيترك وراءه أولاده الذين يعرفون من هم.

وحيث أنها سيكونون جاهزين للانقضاض على (سوريا) وإحكام قبضتهم عليها واستكمال عملية تشيعها تحت سمعه وبصره، وبالفعل لم يخيّب (بشار) أمّلهم وفتح لهم الباب على مصراعيه.

وهذا المشروع (الصفوي) بامتياز كان مدعوماً غربياً وشرقياً: غربياً لأنّه يضمن أمن (إسرائيل) وشرقياً لأنه يضمن المصالح الروسيّة والصينيّة في المنطقة، أما الشعب السوري فلم يكن في حسابات أحد.

أما ما يقال عن العداء الإسرائيلي والغرب، فلا أراه بأكثر من (قميص عثمان) للطرفين ولا أرى وجوداً له إلا في الإعلام، وإذا نظرنا بدقة أكثر للأمور، فنجد أن من مصلحة إسرائيل وجود (محور شيعي) بجانبها كخط دفاع أول عنها في حال وجدت نفسها في وسط دول عربية (سنّية) وغير مدجنة تطالبها بدفع فاتورة جرائمها.

فإذا سلمنا بأن مهمّة النظام الأيدي منذ البداية هي حماية أمن إسرائيل وتصفية المقاومة الفلسطينية، وهذا ما فعل حتى الآن، إذ فمهمة حلفاء هذا النظام لابد وأن تصب في نفس الهدف.

ولهذا وحيث انطلقت الثورة السورية قبل عامين، رأينا حلفاء (العلنيين) في الشرق وعلى رأسهم إيران وعملائها الإقليميين

يستميتون في الدفاع عنه، ورأينا حلفاءه (المكتومين) في الغرب يكتفون بالفلق تارة وبالتنديد تارة أخرى لمنع النظام المزيد من الوقت لتصفية الثورة كما حصل عام 1982 مع مجررة حماة.

ويجب أن لاننسى هنا أن السياسات الغربية في الشرق الأوسط لا يمكنها بأي حال تجاهل الرغبات الاسرائيلية إلا إذا كان صاحبها يريد أن توجه له تهمة (معاداة السامية) الجاهزة.

ومن هنا نرى أن الثورة السورية لاتهم السوريين فقط، ولكن كافة الدول العربية ذات الأغلبية السنوية والتي قد يأتي دور عليها لاحقاً لتشييعها بعد سوريا.

كما أنها تهم دولة إقليمية سنوية رئيسية غير عربية، هي تركية، والتي أعتقد أنها مستهدفة من الشرق والغرب معاً لصعوبتها مؤخراً كقوة اقتصادية لا يستهان بها في ظل حكم له صبغة إسلامية واضحة.

وهذا يعني أن عدم انتصار الثورة السورية سيعني تقدم المد (الصفوي) خطوة جديدة باتجاه أمتنا وأنه سيببدأ باستهداف الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وصولاً إلى المغرب في الخطوات القادمة.

أريد أن أذكر العلوبيين هنا أنهم حين هربوا من العراق في القرن التاسع هربوا أساساً من الشيعة الذين حاولوا وأدهم في مذهبهم، وهم حين أتوا إلى سوريا لم يقم الشعب السوري (السني بغالبيته) بإفناهم والدليل على ذلك أنهم ما زالوا موجودين حتى اليوم بالرغم من مؤامراتهم وتعاونهم مع الغزاة ضده.

من جهتي، فأرى أنه إذا وقع العلوبيون تحت رحمة الشيعة من جديد، فحينها ستكون نهايتهم المحتملة.

والمضحك في الأمر أنهم يعملون على هذا المشروع بأنفسهم وكأنهم لا يعرفون المثل الشعبي القائل (لأحد يأتي بالدب إلى كرمه)، متဂاهلين التاريخ ومتناسين ماذا يعنون حقاً بالنسبة للشيعة.

وهذا برأي مايفسر حبهم للجزمة العسكرية، فقد ليس لهم الغرب واستعملهم لحماية رببته إسرائيل، وليس لهم الروس أيضاً ليصلوا بهم إلى مياه المتوسط، ويجلسون الإيرانيون لاستكمال مشروعهم الشيعي. فهل حقاً يجهلون ما هو في النهاية مصير (الجزمة العتيقة) بعد استهلاكها؟

المصادر: